أصول الترجمة عند الجاحظ.

أ . عتيقة حيدوش*.

اتصلت العرب بغيرها من الأمم منذ جاهليتها، إما بحكم الجوار أو التجارة أو العلم، فاحتاجوا إلى قدر ـ ولو يسير ـ من لغات هذه الأمم للتواصل معها، فكانت الترجمة جسرا ربط بين العرب ومختلف الشعوب من فرس وروم وهنود.

ومما يدل على أن العرب استعانت بالمترجمين ما أورده بن كثير في تفسيره سورة الفيل، أن عبد المطلب ـ جد الرسول ﷺ ـ ذهب إلى أبرهة بن الصباح المشهور بأبرهة الأشرم يطالبه برد إبله التي أخذها منه: « فلما رآه أجله ،و كان عبد المطلب رجلا جسيما حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط وقال لترجمانه:قل له ما حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني؛ أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين أبائك جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه »(1) أي :سيحميه.

المرجح أن أبرهة الأشرم كان نصرانيا، وكانت النصارى تتحدث اللغة السريانية.

و لئن كانت التجارة من العوامل الرئيسية ، في احتكاك العرب بغيرهم، فإننا لا نعدم تأثرهم بعد ذلك ـ وإن كان ماعرفته الدولة الأموية يسيرا في هذا المجال ـ بالثقافات اليونانية والهندية والفارسية والرومانية، بعد أن وفدت إلى بغداد شعوب مختلفة الألوان والثقافات والأديان واللغات.

* معهد الأدب العربي واللغات ، المركز الجامعي آكلي محند والحاج ، بالبويرة .

(1) الحافظ ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق أنس محمد الشاهي ومحمد سعيد محمد ، ج4 ، دار البيان العربي ، القاهرة (د.ت) ص 705.

و في خضم ذاك التنوع البشري والثراء الثقافي، ازدهرت حركة الترجمة فشملت مختلف العلوم والفنون والآداب، خاصة في القرن الثالث الهجري.

وقد شهد الجاحظ هذا العصر وعايشه، فكان خير شاهد عليه، على الرغم من أنه لم يخض غمار الترجمة فاكتفى بالتنظير لها. وقد عرف عن الجاحظ أنّه لم يكتب بلغة أخرى غير العربية ، بيد أنه ـ ومن دون شك ـ اطلع على ما كان يقع بين يديه من كتب مترجمة من مختلف المعارف واللغات واستطاع أن يميز جيدها من رديئها.

و من هذا المنطلق، ارتأينا أن نربط حديث الجاحظ عن الترجمة بما ورد قبله وبعده من موضوعات في كتاب الحيوان؛ فقادتنا قراءتنا هذه إلى حصر مجموع الأحاديث ذات الصلة الوثيقة بمختلف العلوم الإنسانية كعلوم اللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع والانتربولوجيا والاتنوغرافيا وعلم الآثار وغيرها .

و لئن كان معظم الباحثين قد توجهوا مباشرة إلى الفصل الذي جعله الجاحظ للترجمة، فإنني اخترت السياق المذكور لأنه دقيق المسالك ومشعب المشارب،يأخذ من كل علم من العلوم السالفة الذكر خطّه وقدره.

احتوى الكتاب* على مقدمة مطولة مكونة من عدة نقاط، نوّه فيها الجاحظ بمكانة الكتاب،و مدح البيان وعدّد منافع الحساب، وذكر خطوط الهند، وأشاد بفضل القلم واللسان، وعقد مقارنة بين الإنسان والحيوان. ولعلّ أهم هذه النقاط هو ما جاء من حديثه عن « حاجة بعض الناس إلى بعض »، فقال: « ثم اعلم ـ رحمك الله ـ أن حاجة بعض الناس إلى بعض لازمة في طباعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لاتزايلهم، ومحيطةً بجماعتهم ومشتملة على أدناهم وأقصاهم (....) وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم، وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا » (1).

و نعتقد أن « مصطلح » الأخبار في هذه الفترة يشكل مجموعة من

* كتاب الحيوان للجاحظ .

(1) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، كتاب الحيوان ، ج1 ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1998 ، ص34 .

العلاقات الدالة على التواصل الاجتماعي والتاريخي والثقافي لأنه ورد في سياق الحاجة إلى الأخبار أي معرفة الأقوام والشعوب التي سبقتنا والتي سبقتها بدورها ، ثم حاجة من يأتي بعدنا على أخبارنا.

ثم إن هذه الحاجة صفة أصيلة في الناس، ولذلك استدعت ذكر: الطبع والجوهر والثبات والجماعة والأقصى (الأبعد) والأدنى (الأقرب)، وهي تمثل حقلا دلاليا واحدا هو روح الجماعة وضرورة الاتصال بالآخر.

و يجعل الجاحظ من الكتاب الوسيلة المثلى والأولى للتواصل بين بني البشر لأن: « الكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام »(1).

لأنه : « ناطق ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء »(2). ولا يسعنا المجال ههنا للحديث عن كل ما ذكره الجاحظ من فوائد الكتاب ساعيا في ذلك إلى تحبيبه إلى أنفسنا وجعله أقرب رفيق لنا لأنه : « لا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه »(3). يلازمنا في السّراء والضراء دون ملل أو كلل،و لا ينظر إلى الصورة التي نكون عليها ولا إلى الحالة النفسية التي نكون فيها إذا نحن لجأنا إليه.

كما أن الكتاب أولى وأشدّ من البنيان: « لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على أثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم »(4).

كما أن النقش أو الكتابة على الجدران تحفظ الآثار وتؤرخ للأمور الجسام ولذلك كانوا: « يعمدون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدّثور، وأمنعها من الدروس، وأجدر أن يراها من مرّ بها، ولا تنسى على وجه الدهر »(5).

و لعل شغفنا لزيارة أثار الفراعنة في مصر أو جبال المبوس باليونان أو آثار المسلمين في الأندلس أو الرومان في تيمقاد ووقوفنا مشدوهين أمام

(1) المصدر السابق ، ص 32 .
(2) المصدر نفسه ، ص 32 .
(3) المصدر نفسه ، ص 38 .
(4) المصدر نفسه ، ص 52 .
(5) ص41 ـ عندما انتصر الخليفة العباسي المأمون على الروم عام 215هـ/830م ، طلب من ملكهم أن يسلم لهم الكتب التي أخفاها اليونانيون في سراديب بعد انتشار المسيحية في بلادهم ، مقابل ألا يدفع غرامة . فاعتبر ملك الروم ذلك مكسبا في حين كان مكسب المأمون أعظم وأبقى. فسرعان ما جمع المترجمين ووضع بين أيديهم كل الكتب التي غنمها من هذا الانتصار .

ما خطه من سبقونا، هو بدافع المعرفة والوصول إلى ما كتبه هؤلاء لتخليد آثارهم الشاخصة للعيان.

و عليه، يجب أن تكون لذّة الشخص لاقتناء الكتاب لا تضاهيها لذة أخرى: «و من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عشّاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغا رضيا»(1).

هذا نزر قليل مما ذكره الجاحظ عن الكتاب والقلم واللسان والآثار وغيرها ، ولنا عودة إلى بعض ما ذكر فيها ومنها، حين نعرض إلى الأسس التي وضعها الجاحظ للترجمة، و هي:

أ. حداثة الشعر العربي.
ب. صعوبة ترجمة الشعر.
ج. شرائط (شروط) الترجمان.
د. تحريف الكتب.

أ ـ حداثة الشعر العربي:

هذه الإشارة من الجاحظ إلى حداثة الشعر العربي هي بمثابة الإقرار والإثبات على أن الأمم خاصة اليونان ـ كانت قد سبقت إلى قول الشعر ونظمه وإلى تأليف الكتب. كما أن كتب أرسطو طاليس وأفلاطون سبقت «بدهور» ظهور الشعر العربي : «و أما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن، أول من نهج سبيله، وسهل الطريق إليه:امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة. وكتب أرسطو طاليس، ومعلمه أفلاطون،ثم بطليموس، وديمقراطيس، وفلان وفلان، قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدّهور، والأحقاب قبل الأحقاب».

و لهذا، قدّر الجاحظ المدّة الفاصلة بين ظهور الشعر ومجيء الإسلام، بمائة وخمسين أو مائتي سنة.

و يذكر الجاحظ ههنا كتب اليونان ومؤلفيها، ولا يذكر أشعارهم، رغم أن هوموروسHomère كان قد كتب ملحميته الإلياذة والآوديسا في القرن الثامن قبل الميلاد حوالي (850 ق.م) ــ فهل استعصى على العرب

(1) المصدر السابق ، ص 52 .

ترجمة الشعر اليوناني وبذلك حكموا بعدم قابلية الشعر للترجمة؟ أم أنهم لم يترجموا الملحمتين لما فيهما من الخوارق والوثنية والخرافات؟ و نعتقد أن عدم معرفة الجاحظ بالملحمتين هو ما جعله يقول : « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، و على من تكلم بلسان العرب »(1). و هذا يحيلنا إلى مرجعية أخرى، و هي أن الشعر إبداع وجداني، وأن الأذن العربية التي تعودت السماع، هي الواقفة وراء رأي الجاحظ السابق.

ب ـ صعوبة ترجمة الشعر:

لما كان الوزن عماد الشعر ،جاءت كل محاولة لترجمته فاشلة، لأنه بذهاب الوزن، يذهب الايقاع والتناغم اللذين يستدعيهما الشعر ،و بالتالي فان الكلام المنثور أحسن وأشد وقعا في الأسماع وفي النفوس من الشعر المترجم: « و الشعر لا يستطاع أن يترجم،و لا يجوز عليه النقل،و متى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب،لا كالكلام المنثور، والكلام المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر »(2).

ثم إن الترجمان لا يمكن أن يكون في المستوى نفسه مع الشاعر في مقاصده وفي معانيه وفي رهافة حسّه وفي مهارته في تشكيل صوره وانتقاء أدواته وألوانه البلاغية.

جـ ـ شروط الترجمان:

ونودّ في هذا السياق أن نورد حكاية طريفة لأبي الفرج الأصفهاني خصّ بها الشاعر الأموي ذا الرمة، و قد اعترضه خياط (يسخر منه) في المربد ويسخر منه لتشبيه حبيبته « أم سالم» [أو « مي» المعروفة] بظبية لها قرنان وذنب وساقان دقيقتان، قال الأصفهاني « بينا (بينما) ذو الرمة ينشد بالمربد والناس مجتمعون إليه، إذا هو بخياط يطالعه ويقول:

أأنت الذي تستنطق الدار واقفا   من الجهل : هل كانت بكن حلول

فقام ذو الرمة وفكر زمانا، ثم عاد فقعد في المربد ينشد، فإذا الخياط قد وقف عليه، ثم قال:

(1) المصدر السابق ، ص 53 .
(2) المصدر نفسه ، ص 53 .

أأنت الذي شبهت عنـزة بقفـرة لهـا ذنـب فـوق أسـتها أم سـالم.

و قرنان أمـا يلزقـا بـك يتركـا بجنبيك يـا غـيلان مثـل المواسـم.

جعلت له قـرنين فـوق شـواتها و راتبـك منهـا مشـقة في القـوائم.

فقام ذو الرمة فذهب، ولم ينشد بعدها في المربد حتى مـات الخيـاط. وأراد الخياط بقوله هذا قول ذي الرمة:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أم سالم[1]؟

وهذا ما يحيلنا على ما جاء في كتاب أسفار في الصحراء العربية لــ: دوغتي والـذي لم يستسغه الغـرب كـثيرا رغـم أن صـاحبه انبهـر بصـحاري العرب وما فيها من حسن وجمال طبيعيين، لكن ناقد موري: لكتاب دوغـتي علاقة بين أسلوب المؤلف ولغته والأرض التي وصفها في الكتاب:

« يدهشك الكتاب بغرابتـه، وهـو منفـر للقـارئ، ولكنـك إذا أسـلمت نفسك إليه وجدت أن خشونة اللغة الـتي تعمـدها الكاتـب ووحشـيتها، هـي تعبير لابد منه عن نوع من الشـعور منسـجم مـع ذات الكاتـب . وانـه ابتعـد تماما عما يراه أبناء القرن العشرين من الغـربيين علـى أنـه طـراز أو نمـوذج سوي، لأن وراء ذلك السـرد الرائـع لأرض غريبـة عجيبـة تكشـف مـا يكـاد يكون تغشـفا في الشـعور ـ إنـه في حقيقـة الأمـر انسـجام كامـل بـين مـزاج الكاتب وأرض رحلته المختارة ولغته »[2] .

ذلـك أن الكاتـب لجـأ إلى مـا كـان يطـابق المنـاظر الـتي شـاهدها، والناس الذين جلس إليهم وأقام معهم ؛ والحيوانات الـتي شـاهدها، وطلـوع الشمس وغروبها وطلوع القمـر وأفولـه، في حضـارة أخـرى غـير حضـارته وفي مكان بدوي غير مدينته، فكان لابد أن يتبـاين أسـلوبه في هـذه الأسـفار عن أسلوبه في مواقف أخرى

« فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق، وابن ناعمة، وابن قـرة، وابـن فهريز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفع، مثل أرسـطا طـاليس؟ ومتـى كـان

(1) الأصفهاني ، أبـو الفـرج علـي بـن حسـين ، الأغـاني ، دار الكتـب ، القـاهرة ، 1975 ، ج18 ، ص 24/23 .

(2) Murry, J.M, the problem of style, London, 1956, p. 17.

خالد مثل أفلاطون؟ »(1).

ونرى أن عدم ذكر الجاحظ بعض الأسماء اللامعة في الترجمة ممن عاصروه وأشهرهم حنين بن إسحاق (ت 260هـ) لم يكن بدافع النسيان أو الإهمال، وإنما ذكر الأسماء السالفة وقارنها بمؤلفي الإغريق أو اليونانيين القدامى، لأنها لا ترقى إلى مستواهم أو لا يمكن أن تبلغ مستواهم .

وفي التفاتة ذكية من الجاحظ، يذكر مصطلح «الدليل» ليشير إلى أن المترجم الذي هو نسخة ثانية غير أصلية ـ للأثر المترجم، لا يتوخى الأمانة في الترجمة، وكأني به ـ وهو يذكر الأسماء السابقة.

إن هؤلاء المترجمين عن اليونانية أجحفوا في نقل أو ترجمة معارفها . لذلك يشترط الجاحظ أن تكون معرفة المترجم في المستوى نفسه للغة المترجم عنها .

وأن يتوخى البيان (البلاغة) في ترجمة الآداب والدقة في ترجمة العلوم : « ولابد للترجمان أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية »(2).

د ـ ترجمة كتب الدين (تحريف الكتب)

أما المسألة الأكثر استعصاء (في نظر الجاحظ) فهي (مسألة) ترجمة كتب الدين؛ ذلك أن العجز ظاهر في محاولة البشر ترجمة كلام بعضهم بعض فما بالنا إذا يتعلق الأمر بكتب الدين وما يعتري الناس من عجز.

ومن الشروط التي يجب أن تتوافر في المترجم للدين، أن يكون عارفا بأبنية الكلام وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم، وإلا أخطأ في تأويل كلام الدين.

فماذا كان مترجم هذه الآية الكريمة قائلا؟ يقول الله عز وجل ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لو أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ [القصص: 10] .

(1) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج1 ، ص54 .
(2) نفسه ، ص54 .

ولئن جاء حديث الجاحظ في هذه المسألة مقتضبا، فلأنه كان قد بث آراءه في الديانتين المسيحية واليهودية في مختلف مؤلفاته، كما تحدث عن مختلف المعتقدات والملل والنحل في مواضع مختلفة من كتبه. وإلا كيف يذكر الجاحظ مسجد دمشق ويتبعه بالحديث عن مضمون كتب الزنادقة مستعينا بما أوتي من بيان، إظهار ما فيها من أباطيل : « وجل ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت (...) وكله هذرٌ وعلي وخرافة، وسخرية وتكذب »(1) .

ويكفي الجاحظ بعد نظر أنه جعل الكتاب ميراثا بين الأمم والشعوب، وبالتالي فإن الترجمة عنده وإن لم وإن لم يصرح بذلك هي ترجمة بين ثقافتين، وألا حدود بين أمتين ما دامت هذه الكتب : « قد نقلت من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . فقد صح أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر من البنيان والشعر »(2) .

وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . فقد صح أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر من البنيان والشعر »(3) .

مصادر البحث و مراجعه:

أ. باللغة العربية :

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن حسين، الأغاني، دار الكتب، القاهرة،1975.

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، كتاب الحيوان ، ج1 ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1998 .

الحافظ ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق أنس محمد الشاهي ومحمد سعيد محمد ، دار البيان العربي ، القاهرة (د.ت) .

(1) نفسه ، ص42 .
(2) نفسه ، ص53 .
(3) نفسه ، ص53 .